

أهمية دراسة العائلة بالنسبة لعلماء الأنثروبولوجي والاجتماع

العائلة وعلم الأنثروبولوجي

يركز علم الأنثروبولوجيا على دراسة المجتمعات البدائية التي لازالت في مرحلة التخلف لاسيما التخلف المادي وكذلك الجماعات والهيئات والتنظيمات التي تعيش بعيدا عن التطور الحضاري، ولم تخلو كتابات الأنثروبولوجيين من وصفهم وتحليلهم للعائلة لأنهم عدّوها ذات أهمية بالغة في دراساتهم من حيث تطورها والأشكال التي مرت بها والأدوار التي تقوم بها. فلقد وضع رجال الأنثروبولوجي نظريات مختلفة حاولوا من خلالها تفسير هذه المؤسسة، فقد ذهب البعض منهم إلى التركيز على علاقة العائلة بعملية التغير الاجتماعي وذهب البعض الآخر إلى مقارنة العائلة والزواج في المجتمعات المختلفة مع التركيز على علاقة العائلة بالبناء المؤسسي. وهناك من الدراسات ركزت على الطريقة التحليلية في دراسة العائلة حيث أنّ مثل هذه الدراسات تنظر إلى العائلة على أنّها مؤسسة اجتماعية لها بناء ووظائف تتعلق بالعمل الداخلي لها، وترتبط بمؤسسات أخرى ومجموع هذه المؤسسات تعمل على تكامل الحياة البشرية للجماعات التي تعيش داخل المجتمع. فالدراسات الأنثروبولوجية اتخذت شكلين رئيسين في دراسة العائلة:

الأول- ينظر إلى العائلة على أنّها نظام اجتماعي حيث يتفاعل هذا النظام مع بقية النظم الاجتماعية الأخرى، وقد تشكل هذه النظم شبكة اجتماعية من الناحية البنائية والوظيفية لهذه العلاقات فيركز هذا الجانب على أعمال العائلة الداخلية والوظائف التي تنجزها للمجتمع ككل ويدعى هذا الاتجاه بالطريقة البنائية- الوظيفية.

الثاني- يركز على العائلة والزواج، ووفق هذا الاتجاه فقد اعتبرت العائلة في علاقتها الشخصية المتداخلة لأفرادها ما هي إلا منظومة لوحدة هذه الشخصيات المتفاعلة في هذا الاتجاه نتيجة لما تركه علماء النفس في دراساتهم حول العائلة. هذا ولا زالت هذه الدراسات لها من الأهمية بالنسبة للباحثين والمشتغلين في حقل العائلة.

العائلة وعلم الاجتماع

أمّا علماء الاجتماع فقد ركزوا على دراسة العائلة تركيزاً كبيراً واهتموا بها في مجال بحوثهم النظرية والميدانية على حدٍ سواء. إنّ هذا الاهتمام لا يختلف عن اهتمام الأنثروبولوجيين لهذه المنظمة، ويمكن أن يرجع السبب إلى العلاقة الوثيقة التي يرتبط بها هذان الحقلان من حقول المعرفة الإنسانية لكونهما يتناولان الموضوع نفسه ألا وهو المجتمع. كما ويتبعون في كثير من الأحيان الطرائق المنهجية والبحثية ذاتها.

ولقد شهد القرن التاسع عشر نشاطاً فكرياً ملحوظاً وذلك من خلال البحوث والكتابات المتنوعة التي تناولت العائلة ولعلّ من أبرز هؤلاء الباحثين هو العالم الألماني (تونيس) حيث نشر بحثين مهمين حول العائلة معتمداً في دراسته هذه على الدراسات الحقلية، كما حاول (مورغان) معالجة السلوك العائلي عن طريق إعداد دراسة منهجية حول هذا الموضوع. وبعد ذلك تبعه علماء اجتماع آخرون أمثال (بارسونز وديفز وهومانز) حيث وجه هؤلاء الباحثون جزءاً من طاقاتهم واهتماماتهم إلى دراسة العائلة ومشكلاتها، كما ركزوا على تفسير البناء العائلي ومعظم هذه الدراسات كانت تنطوي على آراء نظرية أكثر مما هي ميدانية. وكان أساس نتائج هذه البحوث يدور حول ما إذا كانت المجتمعات البشرية تتميز بالأسر الأبوية أو الأمومية، إضافة إلى أنّ اهتمام علماء الاجتماع بدراسة العوائل المختلطة وغير المرتبة والأحادية. إنّ مثل هذه الدراسات تحتاج إلى دعم تاريخي بالرجوع إلى المجتمعات البدائية والبحاث التي تناولت العائلة في مثل هذه المجتمعات.

ومن هنا نشأت العلاقة الوثيقة بين علم الأنثروبولوجي والاجتماع في البحوث التي أسهموا فيها في دراسة النظم والمؤسسات الاجتماعية ليس فيما يتعلق بالعائلة فحسب بل في الميادين الأخرى التي تتعلق بالمجتمع فعلى سبيل المثال لا الحصر وجد (مورغان) وكذلك (أنجلس) أنّ هناك زواج جماعي في بعض المجتمعات البدائية بينما برهن الباحثة (وستر مارك) على العائلة الأحادية أي وحدانية الزوج والزوجة في المجتمعات البدائية. وقد يختلف الباحث (هنري مين) عنهما حيث برهن على أنّ العائلة الأبوية هي السائدة في المجتمعات البدائية، وبهذا يكون هذا النموذج من العائلة الصورة الأولى للعائلة البشرية. كما حاول (باخوفن وبرفولت) في تأكيد أسبقية العائلة الأمومية على العائلة الأبوية في الحياة البشرية. وبالرغم من هذه البحوث وغيرها لم تأخذ شكلاً مستقراً يمكن البرهنة عليه بصورة كاملة لفقدان الدليل والدعم الواضح لهذه الأيديولوجيات، إلا أنّها كانت مهمة بالنسبة لعلماء الاجتماع الذين درسوا العائلة فالمخزون التاريخي الأساس الذي يعتمد عليه علماء الاجتماع هو دراسات الأنثروبولوجيا. إنّ

دراسة تطور هذه المنظمة الحيوية في المجتمع ونموها لا يمكن لنا أن نهمل هذه الدراسات لأنها ترسم لنا المنظور الواضح لتطورها ونشئها وتغير أشكالها. وعلى ضوء ما تقدم يمكن أن نقرر أن ميدان علم الاجتماع شديد الصلة بالتنظيم العائلي وتخلو دراسات معظم الباحثين في هذا الحقل من الإشارة إلى العائلة بل تشكل بعض الأحيان محور دراسات بعضهم للدور الكبير الذي تلعبه في حياة الفرد والمجتمع.